خليج السان جورج مطلع الستينيات

نادي الشرق وسط بيروت

المكوّر، الذي يُسعده أن يضرب عليه بين فكرة وأخرى، كجزء من مزاجه المازح، إلى الزيتونة مِن جديد. يعود إلى سبابته مجدّداً، دالاً إلى مكان «مقهى الحاج داوود». إنّه أحد أشهر مقاهي بيروت القديمة على الإطلاق. أن تأكل الفول المدمّس وحمص «المسبّحة» على البحر تماماً. يقول: «كنت أهوى السباحة هناك. كنت أتصيّد وأبيع السمك لقهوة الحاج داوود، وكمان كنت بيع لقهوة البحري. هيدي كانت قهوة صايرة متل جزيرة، بقلب الماي. كنا نسهر هونيك على الشط لآخر الليل، وأوقات ننام على الشط، وأوقات كنا نولّع خشب ونشوي سمك، ناكل ونضرب بيرة وننام. أيّام يا عمّي أيّام. ما كنت روح على مسبح عجرم، قدام شوي، رحت مرّة أو مرتين، مع أنّه كان مختلط، كانت الدخولية بنص ليرة. كان فخم، بس شو بدي فيه. الشط ببلاش، وشو ما بدّك بتلاقي هون».

مِن هنا، مِن الزيتونة، مِن المكان الذي تعوم فيه اليخوت الفارهة، وتكثر فيه الوجوه «البلاستيكيّة»... أطلّت النائبة بهيّة الحريري نهاية تمّوز الفائت. الحريري، هذه المفردة، أكثر مِن كونها مجرّد عائلة، ستصبح بعد حقبة الحرب الأهليّة، ومع حقبة «سوليدير» وما سيليها، عنواناً لتكديس الأموال والمشاريع الضخمة على حساب طمس ذاكرة مدينة. جاءت بهية مُكرمة مِن جانب مهرجان «بياف» السنوي، ومزهوة قالت: «للذين أرادوا أن يقطعوا الطريق على بناء الدولة المدنيّة الحديثة، أحب أن أقول لهم من هذا المكان، لا يوجد قوى تمنع اللبنانيين من بناء دولتهم المدنيّة الحديثة». هكذا تفهم الحريري «الحداثة». السطو على الأملاك البحريّة العامة حداثة! الأملاك التي لو أعيدت إلى الدولة، الدولة لا السلطة، وتم استثمارها بما تستحق، لأمكن سدّ الدين العام، لكنها حداثة! أن يكون محمد الصفدي، حليف «الحريرية» في أسلوب العيش، قبل أيّ شيء آخر، وزيراً للأشغال العامة، فيوقّع لنفسه، لشركته، على شرعيّة بناء «الزيتوناي باي»... فهذه حداثة! حداثة «بلاستيكية» كأصحابها، تمرّ فوق السجّاد الأحمر، على وقع الأنخاب، في مهرجان «بياف» وأخواته. هذه المهرجانات التي نشط وينشط سعد الحريري في افتتاحها. سعد ابن أخ بهيّة، ابن رفيق الحريري، ابن المؤسس لسلوك «سحب أرواح» الأماكن. إنّها «طريقة عيش». طريقة حقّاً. صدقت بهيّة، التي، مع صدى مفرقعات انتصار طريقتها، وقفت تقول: «الشكر الكبير إلى منظمي هذا المهرجان، على إصرارهم وعزيمتهم وإرادتهم، لإبقاء عاصمتنا الحبيبة حيّة بهذه الطريقة».

لا يزال أبو خليل واقفاً مكانه. يرمقهم مِن فوق. لو كان لوجهه أن ينطق لقال مستعجباً: «مَن هم هؤلاء القوم». يعود بالذاكرة مرّة أخرى، إلى الأشياء التي لم تعد حتّى أثراً بعد عين، لم يعد لها أيّ أثر أصلاً: «مِن هون كنّا نطلع على سينما روكسي، عصير الزين، كباريه نادي الشرق، مطعم لوروندا، الفاكهاني، سوق الأرمن للأحذية، فرن الشامي في شارع المعرض، التياترو الكبير، سينما بيبلوس وسينما الزهراء... الله يلعن يلي جعل هيديك الأيام وذكرياتها تروح». على بساطته يقول: «ما عادت حلوة هلق». ماذا تقصد؟ يحاول الإيضاح: «مش مِن عاداتنا هلق». لا بد مِن جهد مضاعف لفهم «قفشات» أبو خليل «الإثنوغرافيّة». صاحبنا لم يُحصّل سوى شهادة الخامس ابتدائي، أو «السلتفيكا» (هكذا يلفظها). يتذكّر فجأة مطعم «نيفا عميرة». أكلة الـ«نيفا» لا يعرفها كثيرون مِن جيل اليوم. وإلى «اللحمة المشويّة» عند موقف عاليه وبحمدون، مِن حيث ولد مثل شعبي رُدّد طويلاً: «خمس سياخ فشّة بربع مع رغيف وهوّيلو». الربع هنا هو ربع ليرة. نوعيّة أرغفة الخبز في المطاعم آنذاك مختلفة عن أرغفة اليوم. الرغيف الشهير في تلك الحقبة كان اسمه «الماوي». كان مخصصاً للسندويشات، ولكن «أساساً كان الخبز هيديك اليوم ينباع بالكيلو، مش بالربطة مثل هلق، ورغيف الماوي كان سميك كتير، كنّا نقول عنه إذا بتضربه براس اليهودي بأسلِم». يضحك أبو خليل. كان لديه أصدقاء مِن اليهود اللبنانيين في منطقة وادي أبو جميل، ولكن «يا زلمي اختفوا فجأة».

يتصوّر البعض أن نمط الحياة البيروتي القديم، أو الـ«أبو خليلي» تحديداً، انتهى مع بداية الحرب الأهليّة عام 1975. هذا غير دقيق. لقد تغيّرت الأمور قليلاً، تقول الذاكرة الحيّة، لكن الحياة ظلت تشبه نفسها حتى انتهاء الحرب الأهليّة. هذه مفارقة لافتة. حبّ أبناء البلد لذاك الفضاء العام كان يدفعهم لارتياده، حتى في أيّام الحرب، وهناك «كنّا عندما يندلع اشتباك ما نتوجّه إلى بعض المتاريس، التي باتت مشهورة عندنا، فنختبئ، ثم تعود الحياة إلى طبيعتها». شهد الرجل لحظة إنزال قناص ياباني، مِن مبنى «هوليدي إن» الشهير، في المعارك بين «الكتائب» و«الحركة الوطنيّة».

شهد ذلك ثم عاد إلى عمله. هكذا، لسنوات، يقاتل «النمط» للبقاء، فيعود إلى حيويته، بعد كل جولة عنف بين المتحاربين. مِن غرائب البلدان أن لا تكون الحرب هي مَن يُجهز على روح مدينة، بل شيء آخر، شيء يمكن أن يأخذ شكل «سوليدير» مثلاً، أو وزير أو عائلة أو مافيا سياسيّة. شيء يأتي بعد الحرب مباشرة، هو حرب حقيقيّة، إنّما يتدثّر لباس السِلم، فيُدمّر ما بقي مِن ذاكرة... ويقتل ما عجزت الحرب عن قتله.

> رغيف الماوي كان سميك كتير ونقول عنه إذا بتضربه براس اليهودي بأسلِم
>
> مِن غرائب الحرب أنها ليست مَن يُجهز على روح مدينة، بل شيء آخر يأتي بعدها مباشرة

الأول من ذاك العقد، قبل بداية الحرب الأهليّة، كان أعلى مراحل تطوّر بيروت كظاهرة حياتيّة. الرجل ينفع جدّاً في أيّ دراسة «انثروبولوجيّة». إنّه ذاكرة شفويّة، ممتلئة، تُجيد التعبير... وتمشي على قدمين.

نعود إلى سرد صاحب «الكرش»

مقهى الحاج داوود في الزيتونة القديمة

سوق النورية في الخمسينات